المبحث الأول
ترجمة الإمام السَّرخسي

المطلب الأول: اسمُه ونسَبُه

هو الإمام محمّد بنُ أحمدَ بنِ أبي سهل، أبو بكر السَّرخسيُّ، الملقَّب بشمس الأئمّة[(١)].

وُلد الإمام محمد بن أحمد بن أبي سهل في سَرْخَس، فنُسِبَ إليها، وهي بلدةٌ قديمةٌ من بلاد خراسان بين مَرْو ونيسابور، وهو اسمُ رجلٍ سكن هذا الموضع وعمَّره، وأتمَّ بناءَهُ ذو القُرنينِ، وتم فتحها زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد عبد الله بن حازم السلمي[(٢)].

ولم أقف فيما بين يدي من المصادر التي تناولت سيرته على ذِكْرِ تاريخ ولادته رحمه الله تعالى.

المطلب الثاني: نشأته وطلبه للعلم

بالرغم من المكانة المرموقة التي نالها الإمام السرخسي، ورغم الاعتراف بسَعَةِ عِلْمِه وفَضْلِه، إلا أنّه ممّا يلحظُه الباحث في كتب التَّراجم والسير التي تناولت سيرته، وحياته والتَّعريف به، أنها لم تتوسَّع في بيان العديد من جوانب شخصيَّته وخصوصاً فيما يتعلّق بنشأتِه وبداية طَلَبِه للعلم، غير أنّ بعضها ذكر أنه انتقل إلى أوزكند، وهي بلدةٌ تقع فيما وراء النَّهر من نواحي فرغانة (أوزبكستان)،

---

(١) القرشي، محي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد، (ت:٧٧٥هـ)، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، دار مير محمد كتب خانه، كرتشي، ج٢، ص٢٨، اللكنوي، أبو الحسنات محمد بن عبد الحي اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تحقيق: محمد بدر النعساني، دار السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٤هـ، ص١٥٨، قطلوبغا، أبو الفداء زين الدين قاسم قطلوبغا، (ت:٨٧٩هـ)، تاج التراجم، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ج٢، ص٤٤، الزركلي، خير الدين محمود بن محمد بن علي، (ت:١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط٥، ٢٠٠٢م، ج٥، ص٣١٥.

(٢) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور، (ت:٥٦٢هـ)، الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر بارودي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٣، ص٢٤-٢٨، الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٠٨، القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ص٢٨.

الأمر الذي يعني أنه عاش في تلك النواحي النائية، والبلاد البعيدة عن مراكز العلم وحواضره في تلك الأثناء كمصر وبلاد الشام والعراق، ولا يُعرف عن الإمام السرخسي رحمه الله، أنه زار هذه البلاد، فلو أنه أقام بها أو زارها وأقام بين علمائها واختَلَط بهم لوجدنا له ترجمةً حافلة عند أصحاب كتب التراجم والسِّير المعروفين كالذهبيّ والصَّفديّ وابن الأثير وغيرهم ممّن ترجموا لِمَن هو أقلُّ شأناً منه.

ولكن بالرُّجوع إلى المصادر التي تناولت سيرته نعلم بأنه تلقّى تعليمه في بداية طلبه للعلم في مدينة بخارى، وهي المدينة التي كانت زاخرة بالحركة العلمية، وتكاد تكون بمنزلة حواضر الشرق العلمية مثل بغداد والكوفة والبصرة في فترة ازدهارها، وقد تتلمذ على يد شيخه شيخ الإسلام علي بن الحسين بن محمد السَّغدي، كما أنه لازم الشيخ الإمام رأس الحنفيّة الحلوانيّ، روى عنه الإمام السرخسيّ، وبه تفقّه، وعليه تخرَّج وانتفع، وكلٌّ منهما كان فقيهاً نظّاراً، يروي الحديث ويضبط الأقيسة الفقهية، وقد انتهت مهمّة الانتصار للمذهب الحنفي للسرخسيّ من بعده.

في هذه البيئة العلمية، وهذا الوسط الذي انتشرت فيه المناظرات ترعرع محمد بن أبي سهل السرخسيّ الذي أصبح يُعرف فيما بعد بشمس الأئمّة، هذا اللقب الذي آل إليه بعد وفاة شيخه الحلْوانيّ، فقد أُجلِسَ على كُرسيِّه، وبات يُعرف برئيس الحنفيّة في بخارى، وغدا فقيهاً أصوليّاً مناظراً، وأصبح من طبقات المجتهدين في المسائل، وقد أخذ في التصنيف، وناظَرَ الأقران، وظهر اسمُه، وشاع خبره.

وممّا يذكر في سعة حفظه، أنه كان جالساً في حلقة الاشتغال فقيل له: حُكي عن الشافعيِّ أنه يحفظ ثلاث مئة كرّاس، فقال: حَفِظَ الشافعيُّ زكاةَ ما أحفَظُ. فحُسِبَ حِفْظُه فكان اثني عشر ألف كرّاس[1].

---

(1) القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ص٢٨-٣٠، قطلوبغا، تاج التراجم، ج٢، ص٤٤، الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣١٥، اللكنوي الهندي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص١٥٨-١٥٩، العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت٧٤٩هـ)، مالك الإبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٦، ص٨١.

المطلب الثالث: محنته

سبب محنة الإمام السرخسي رحمه الله، أنه ابتلي بالسجن على جلاله قدره، وعلمه ومكانته، عندما أفتى بتحريم زواج الخاقان من جارية كانت ملكاً له فأعتقها، ولم ينتظر انقضاء عدتها بعد أن أعتقها، فسأل الخاقان من حضر من العلماء فأجابوا: بنِعْمَ ما صنعت، خوفاً من سطوته وغضبه، ولكن الإمام السرخسي رحمه الله صدع بالحق وأفتى بالتحريم لأنَّ العدة تجب على الأمة بعد إعتاقها، فكان تزوَّج المعتدة من الغير في العدة وهذا لا يجوز فما كان من الخاقان أن حبسه في الجب ما يقارب العشرين عاماً[١].

وقد أشار الأمام السرخسي رحمه الله إلى محنته في مختلف أبواب كتابه المبسوط، عقيب الانتهاء من الباب، كقوله في نهاية العبادات: "هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأواخر العبارات، أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات مصلياً على سيد السادات محمد المبعوث بالرسالات وعلى أهله من المؤمنين والمؤمنات[٢]، إلى غير ذلك من أماكن مختلفة من المبسوط يتوجع فيها بنحو هذا من البيان والسجع.

المطلب الرابع: الحالة السياسيّة في عصر الإمام السَّرخسيّ رحمه الله تعالى

وُصف القرن الخامس الهجريّ الذي عاش فيه الإمام شمس الأئمّة السَّرخسيّ بأنه قَرْنُ الاضطرابات والفتن السياسيّة، فهو القرن الذي شهد ضَعْفَ الخلافة العبَاسيّة، ونُشوء دُويلات متناحرة وعصيان من أطراف دولة الخلافة، ووصل وَهْنُ خلفائها مداهُ، حتى غدا الخليفة العبّاسيّ لا يعدو كونه اسماً مجرّداً من التحكُّم في شؤون الخلافة والبلاد، الأمرُ الذي أدّى إلى بروز أطماع الصليبيِّين الذين شدُّوا رِحالهُم لغزو العالم الإسلاميّ نحو مصر والشام، والمغولي نحو العراق والقضاء على مركز خلافتها بغداد، فأمْعَنُوا في الفساد، من قَتْلٍ ودمارٍ لم يشهد له التاريخُ مثيلاً،

---

(١) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، ص٨١، قطلوبغا، تاج التراجم، ج٢، ص٤٤، القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ٢٧-٢٨.

(٢) السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، (ت:٤٩٠هـ)، المبسوط في الفقه الحنفي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٤، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، ج٤، ص٢١٣.

وكُتب التاريخ حافلةٌ في وَصْف هذه الأحداث والأوضاع المضطربة التي شهدتها تلك المرحلة من عمر الدولة الإسلاميّة، بل وبعض دويلاتها المتناثرة هنا وهناك، ومن هذه الدُّويلات التي نشأت في تلك الحقبة الزمنية دولة الغزنويين، ودولة السلاجقة، والدولة الخاقانيّة.

والإمام السرخسيُّ عاش بداية حياته في ظلِّ الدولة الغزنويّة التي حكمت بلاد ما وراء النّهر، وشمال الهند وخراسان، والغزنويُّون هم سُلالة تُركيّة حكمت هذه البلاد سنة (٣٦٦هـ)، ومؤسِّسُها هو محمود سُبكْتُكين، وقد انتهى لتلك البلاد بانتصار السلاجقة عليهم في معركة قُرب باب سرخس سنة (٤٢٨هـ).

والدولة الثانية: هي دولة السلاجقة السُّنِّية، وكان بداية ظهورها بعد استيلاء طغرل بك على نيسابور حاضرة خراسان عام (٤٢٩هـ)، حيث التقى طغرل بك بجيش الغزنويِّين عند باب سرخس وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً، وبعدها استمرَّ نفوذ السلاجقة في تلك المنطقة، وقد شهد نهاية القرن الخامس بداية الحروب الصليبية، وكان للسلاجقة دورٌ عظيم في التصدِّي للعدوان الصليبي، وشهد عهدهم ازدهاراً في مجالات عديدة وفي علوم مختلفة، وفي ظلِّ حُكمهم رحل الإمام السرخسيُّ إلى بخارى.

والدولة الثالثة: هي الدولة الخاقانية، وهي التي حكمت بلاد ما وراء النهر: سمرقند، وبخارى، وفرغانة وغيرها، وتُعرف بخاقان تركستان، أو القرخانية، وقد شهد عصر هذه الدولة بروز دور الفقهاء والمحدِّثين، فكان لهم دورٌ ظاهرٌ في سير الحياة السياسية والاجتماعيّة، وسبب ذلك يعود لالتزام الخاقان الدِّيني، فلم يكونوا يقومون بعمل إلا بعد استفتاء أهل العلم من الفقهاء والمحدِّثين، ولم تكن تلك الاضطرابات والفتن التي شهدتها تلك المرحلة تمنع من ذلك، وبالعودة إلى مصادر ترجمة الإمام السرخسي نجد أنه عاش معظم حياته في ظل هذه الدولة بكل ما فيها من متناقضات، غير أنها لم تكن لتَحُول بينه وبين ما أراد من تحصيل العلم، بكل أشكاله وصوره، من التأليف والتصنيف وإملاء ما حصَّله وحفظه على تلاميذه، وهو في أصعب وأحْلَكِ الظروف على نحو ما كان منه في كتاب المبسوط[1].

---

(1) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن حمد بن عبد الكريم، (ت:٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ج٧، ص٣٥٣، ج٨، ص٥-١١، الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (ت:٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير

المطلب الخامس: الحالة العلمية والفكرية في عصر الإمام السرخسي رحمه الله

لقد شهد القرن الخامس، وهو القرن الذي عاش فيه الإمام السرخسي رحمه الله حركة علمية وفكرية متميزة، رغم الوضع السياسي المضطرب في تلك المرحلة، فقد كان هناك اهتمام ورعاية كبيرين في علوم شتى، سواء كان في مرحلة الدولة الغزنوية أو الخاقانية وخاصة مع ظهور دولة السلاجقة بدا واضحاً ظهور المدارس ورعايتهم للعلماء وتشجيعهم على عقد مجالس العلم وظهور المكتبات، ولعلَّ خيرَ ما يصور حال الحركة العلمية والثقافية في هذه المرحلة، ما ذكره المؤرِّخون عن الوزير نظام الملك[١]، الذي استقلَّ في وزارة الدولة السلجوقية قريباً من ثلاثين عاماً، فكانت مجالسه عامرة بالقراء والفقهاء، أنشأ المدارس في بغداد ونيسابور وطوس، وفتح المكتبات ورغب بالعلم، وكفا به العلماء وطلابه مؤنة العيش، فكان يقول فيهم: "هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستُ كلاً منهم على رأسي لاستقللتُ لهم ذلك"، وما كان أيضاً من أمر شرف الملك[٢]، سنة تسع وخمسين وأربع مئة يدل على ما كان للفقهاء والعلماء من المنزلة الرفيعة عند السلاطين والوزراء[٣].

من الأعلام، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م، ج١٠، ص٢٤٥-٢٤٧، الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ج١٥، ص١٣٧-١٤٦، ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، (ت:٧٧٤هـ)، دار الفكر، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، ج١٢، ص١٤٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٠١، ابن الجوزي، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت:٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ج١٦، ص٨٤.

(١) نظام الملك، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس، قوام الدين الطوسي، ترقى في مراتب الدولة السلجوقية، حتى وزر للسلطان ألب أرسلان، والملك شاه ولد بطوس، وكان شافعي المذهب، توفي مقتولاً سنة (٤٨٥هـ)، ينظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم، (ت:٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م، ج٢، ص١٢٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٩٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٠.

(٢) شرف الملك، أسعد محمد بن منصور الخوارزمي، كان صدراً معظماً، كثير الأموال وكان مستوفي ديوان المملكة الملكشاهية، بنى المدارس والمساجد، وهو منشئ المشهد على ضريح الإمام أبي حنيفة والقبة والمدرسة، وكان حنفي المذهب، وتوفي في محرم سنة أربع وتسعين وأربع مئة، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٩، ص١٨٨-١٨٩، سبط ابن الجوزي يوسف بن قزغلي بن عبد الله، (ت:٥٨٤هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: كامل محمد الخراط وعمار ريحاوي ومجموعة أخرى، دار الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ج١٩، ص١٩٤.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٩٤، ج١٩، ص١٨٨-١٨٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص١٢٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص١٤٠، وطبقات الشافعيين، تحقيق: أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم عزب،

كل ذلك أدّى إلى شيوع المذهب الحنفي، والمذهب الشافعي خصوصاً في بلاد ما وراء النهر، فضلاً عما سواها في نواحٍ عديدة، كان لهذه الأجواء التي ازدحم فيها العلماء في كافة المجالات تأثيراً بالغاً على الإمام السرخسي رحمه الله لأن الإنسان كما يقال: ابن بيئته، فذاع صيته، وعلت منزلته، واشتهرت مصنفاته وكثر تلاميذه رغم المِحَن التي ألمَّت به، وأبرزها بقاؤه في السجن ما يقارب العشرين عاماً[(١)].

المطلب السادس: شيوخ الإمام السرخسي

بالرجوع إلى المصادر التي ترجمت للإمام السرخسي نجد أنهم اقتصروا على ذكر أبرز شيوخه وهو شمس الأئمّة عبد العزيز الحلواني، وتذكر هذه المصادر أنه لازمه وتخرَّج به[(٢)].

غير أنه بالعودة إلى مصنّفات الإمام السرخسي أُتيح لنا معرفة بعض شيوخه الذين صرَّح بأسمائهم.

فبالاطلاع على كتابه "شرح السير الكبير" نجده في بداية هذا الكتاب يُثبت سنده الذي يروي من طريقه هذا الكتاب عن محمد بن الحسن الشيباني، وقد تحصَّل من ذلك أنه أخذ رواية عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني عن طريق ثلاثة من الشيوخ، وفيما يلي ما نصَّ عليه في ذلك:

١. قوله: "أخبرنا الشيخ الإمام شمس الأئمّة أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الحلوانيّ بقراءتي عليه، قال: حدّثنا القاضي الإمام أبو علي الحسين بن الخضر بن محمد النسفي، أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الفضل..."[(٣)].

نشر مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ج١، ص٤٧٨، والذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٩٢م، ج٩، ص٦٥، السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، (ت:٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناهي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ، ج٤، ص٣٠٩.

(١) قطلوبغا، تاج التراجم، ج٢، ص٤٤، القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ص٢٨، اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص١٥٨.

(٢) القرشي الحنفي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ص٢٨، اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص١٥٨.

(٣) السرخسي، شرح السِّير الكبير، نشر الشبكة الشرقية للإعلانات، ١٩٧١م، ص٥.

٢. قوله: "وأخبرنا به القاضي أبو الحسن عليّ بن الحسين السُّغْدي قراءةً عليه، قال: حدثنا الحاكم الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد الكُفيني، حدثنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد بن الحسن..."[١].

٣. قوله: "وأخبرنا به الشيخ الصالح الثقة أبو حفص عمر بن منصور البزار قراءةً عليه، قال: أخبرنا الحافظ أبو عبدد الله محمد بن سلمان الوراق، قال: أخبرنا أبو نصر أحمد بن نصر محمد بن إشكاب..."[٢].

وفيما يلي ترجمة لهؤلاء الشيوخ الذين ذكرهم الإمام السرخسي، وصرَّح بأنه تلقى منهم العلم والسماع، وفق الترتيب الوارد في كتاب شرح السِّير الكبير:

أولاً: شمس الأئمّة الحلْواني[٣]، واسمه عبد العزيز بن أحمد بن نصر بن صالح أبو محمد البخارى الحلواني، إمام الحنفية في وقته ببخارى شيخ عالم بأنواع العلوم، معظم للحديث وأهله، تفقه بالقاضي أبي علي الحسين بن الخضر النسفي، وحدث عن عبد الرحمن بن حسين الكاتب، وأبي سهل أحمد بن محمد بن مكي الأنماطي، وجماعة من أهل العلم والفضل، وتخرج به الأعلام والعلماء والفقهاء كالإمام السرخسي وفخر الإسلام علي بن محمد بن الحسين البَزْدَوي، وغيرهم وصنف التصانيف منها المبسوط في الفقه، والنوادر في الفروع، وشرح أدب القاضي لأبي يوسف، توفي سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة، رحمه الله تعالى[٤].

ثانياً: شيخ الإسلام أبو الحسن السُّغْدي[٥]، علي بن الحسين بن محمد السُّغدي، القاضي، الملقّب بشيخ الإسلام، وركن الإسلام، سكن بخارى، قال ابن قطلوبغا: "وكان إماماً فاضلاً، وفقيهاً

---

(١) السرخسي، شرح السِّير الكبير، ص٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) بفتح الحاء المهملة وسكون اللام، كذا قيَّده السمعاني في الأنساب، ج٤، ص٢١٦، وقال: وهي النسبة إلى عمل الحلواء وبيعها، والمشهور بهذه التسمية أبو محمد بن عبد العزيز بن أحمد بن نصر الحلواني الملقب بشمس الأئمة.

(٤) القرشي، الجوار المضيئة، ج٢، ص٤٢٩، الهندي اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ج١، ص١٩٦، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص١٧٨، السمعاني، الأنساب، ج٤، ص٢١٧.

(٥) بضم السين وسكون الغين المعجمة، وفي آخرها الدال المهملة، كذلك قيَّده السمعاني في الأنساب، ج٧، ص١٤٥، وقال: "هذه النسبة إلى السُّغْد، وهي ناحية كثيرة المياه، حسنة الأشجار...، وهي من نواحي سمرقند، خرج منها جماعة من العلماء، منهم القاضي أبو الحسن علي بن الحسين بن محمد السُّغْدي".

مناظراً، وسمع الحديث، وروى عنه شمس الأئمّة السرخسيُّ "السِّير الكبير"، وتصدَّر للإفتاء، وولي القضاء، وانتهت إليه رئاسة الحنفية، ورُحل إليه في النوازل والواقعات، أخذ عنه الإمام السرخسيُّ الفقه، وروى عنه السِّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيبانيّ، من تصانيفه: "النتف في الفتاوى:، وهو مطبوع، توفي سنة إحدى وستين وأربع مئة[١]، رحمه الله رحمة واسعة.

ثالثاً: الحافظ أبو حفص، عمر بن منصور بن أحمد بن منصور البزّار، الخَنْبي[٢]، وَصَفَهُ الإمام الذهبي بقوله: "الإمام الحافظ، العالم، محدِّث ما وراء النهر"[٣]، توفّي سنة ستيِّن وأربع مئة"[٤].

المطلب السابع: تلاميذ الإمام السرخسي

نظراً للمكانة العالية، والمنزلة المرموقة، والشهرة الواسعة التي كان يحظى بها الإمام السرخسيّ، فقد قَصَدَه عدد كبير من الطلبة الذين تتلمذوا عليه، وسأكتفي بذكر أشهرهم:

١- أبو الفضل بكر بن محمد بن عليّ بن الفضل الزَّرَنْجَري، قال عنه الذهبيُّ: "الإمام، العلامة، شيخ الحنفية، مفتي بخارى،... كان يُضرب به المثل في حفظ المذهب، قال لي أبو العلاء الفَرضَي: كان الإمام على الإطلاق، والموفود إليه من الآفاق، رافَقَ في أوّل أمره برهان الأئمّة عبد العزيز بن مازة، وتفقّها معاً على شمس الأئمّة محمد بن أبي سهل السرخسيّ، توفي سنة اثنتي عشرة وخمس مئة[٥]، رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) السمعاني، الأنساب، ج٧، ص١٤٦، القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج١، ص٣٦١، اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص١٢١.

(٢) بفتح الخاء المعجمة وسكون النون في آخرها باء معجمة بواحدة، كذلك قيَّده السمعاني في الأنساب، ج٥، ص٢٠٦، وقال: "هذه النسبة إلى الجدّ، ... الدهقان الخَنْبي".

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٤٨.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٤٩، وينظر: السمعاني، الأنساب، ج٥، ص٢٠٧.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٤١٥-٤١٧، وتذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ج١٩، ص٤١٥، القرشي، الجواهر المضيئة في تراجم الحنفية، ج١، ص١٧٢، الحنائي، علي بن أمر الله الحنائي، (ت:٩٧٩هـ)، طبقات الحنفية، تحقيق: صلاح أبو الحاج، مركز العلماء للدراسات وتقنية المعلومات، ط١، ص١٢٩،

٢- أبو محمد، عبد العزيز بن عمر بن مازة، المعروف ببرهان الأئمّة، ويُعرف أيضاً بالصدر الماضي، والد عمر الملقّب بالصدر الشهيد[١]، صاحب كتاب "المحيط البرهاني في الفقه النعماني"، وهو كتاب جليل القدر، كثير المنافع.

٣- عثمان بن علي بن محمد، أبو عمر البَيْكَندي[٢]، البخاريّ، قال السمعاني: "الإمام، الصالح، الثقة، وُلد ببخارى في شوال سنة خمس وستين وأربع مئة، ووالده بيكندي، تفقّه على إمام سرخس محمد بن أبي سهل السرخسي، وسمع الحديث منه"، توفّي سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة[٣]، رحمه الله رحمة واسعة.

٤- أبو حفص، عمر بن حبيب الزندراشي[٤]، كان من جملة العلماء المتبحِّرين في الفقه والخلاف، وصاحب نظر في دقائق الفتوى والقضاء، تفقّه على شمس الأئمّة السرخسيّ، قال صاحب الجواهر المضيئة: "جدُّ صاحب الهداية"[٥].

٥- أبو بكر محمد بن إبراهيم بن أنوش الحصيري، من قرية في نواحي بخارى كان يعمل فيها الحصير، كان فقيهاً متبحِّراً في الفقه الحنفي، له كتاب "الحاوي" في الفروع الحنفية، قال حاجي خليفة: "وهو أصلٌ من أصول كتب الحنفية، وفيه شيءٌ كثير من فتاوى المشايخ يُرجع إليه، ويُعتمد عليه"[٦].

---

(١) الحنائي، طبقات الحنفية، ص١٣٤، القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ص٣٢٠.

(٢) نسبة إلى بيكند، من بلاد ما وراء النهر، على مرحلة من بخارى، ينظر: السمعاني، الأنساب، ج٢، ص٤٠٤.

(٣) السمعاني، الأنساب، ج٢، ص٤٠٥-٤٠٦، اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص١١٥، القرشي، الجواهر المضيئة في تراجم الحنفية، ج١، ص٣٤٥.

(٤) نسبة إلى زندراش، بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الدال، من قرى بخارى، ينظر: القطيعي البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق، (ت:٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج٢، ص٦٧٢.

(٥) القرشي، الجواهر المضيئة في تراجم الحنفية، ج٢، ص٦٤٣.

(٦) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب حلبي، (ت:١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م، ج٢، ص٦٢٤، القرشي، الجواهر المضيئة في تراجم الحنفية، ج٤، ص١٨٠، الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٩٥.

المطلب الثامن: مصنفات الإمام السرخسيّ رحمه الله

للإمام السرخسي مجموعة من المصنفات، جميعها من الكتب المعتمدة في الفقه الحنفي، وقد لاقت استحسان أهل العلم وطلبته، وفيما يلي أسماء هذه الكتب التي أمكنني جمعها فيما بين يدي من المصادر:

أولاً: المبسوط: وهو من أوسع كتب الفقه الحنفي، مطبوع، وقد أملاه على تلامذته وهو مسجون، وهو شرح لكتاب الكافي للحاكم الشهيد الذي جمع فيه كتب ظاهر الرواية للإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله[١].

ثانياً: أصول السرخسي: هو كتاب في أصول الفقه، ورد فيه من المسائل الفقهية الموضحة للمسائل والقواعد الفقهية، أملاه في السجن بخوارزم فلما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج والخروج من السجن، فذهب بعد ذلك ابن فرغانة فأكمله بها إملاءً، وهو من أهم الكتب المتقدمة في أصول الفقه، وهو مطبوع في مجلدين[٢].

ثالثاً: شرح الجامع الكبير: شرح فيه الجامع الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ومن أهم كتب المذهب، حيث قام بتخريج المسائل، وردها إلى أصولها وأقيستها، وهو مطبوع[٣].

رابعاً: شرح الجامع الصغير: شرح فيه الجامع الصغير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، وهو ثاني كتب ظاهر الرواية، ويظهر أن الكتاب لم يشتهر ولم يتداول كثيراً، وسبب ذلك لشهرة كتاب المبسوط[٤].

---

(١) محمد بن محمد بن أحمد، أبو الفضل للروزي السلمي البلخي، عالم مرو وإمام المذهب في زمانه، ولي القضاء ببخارى، وولاه صاحب خرسان وزارته، وقُتل شهيداً في الريّ سنة ٣٣٤هـ.

(٢) القرشي، الجواهر المضيئة، ج٢، ص٢٨، قطلوبغا، تاج التراجم، ج٢، ص٤٤.

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٥٦١.

(٤) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٥٦١، السرخسي، أصول السرخسي، تحقيق: أبو الوفاء الأفغاني، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ج٢، ص٤.

خامساً: شرح السير الكبير: شرح فيه كتاب السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، وهو من كتب ظاهر الرواية، وهذا الشرح له نسخ عديدة في أكثر من دولة أوروبية وتركيا، كما نشرته جامعة الدول العربية بتحقيق: صلاح الدين المنجد، والكتاب مطبوع متداول، أملاه وهو في السجن بخوارزم، فلما وصل إلى باب الشروط، خرج من سجنه، فذهب إلى فرغانة فأكرمه الأمير سيف الدين، فوصل إليه الطلبة فأكمله إملاءً في داره، وذلك سنة ٤٨٠هـ[١].

سادساً: شرح السير الصغير: كتاب السير الصغير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ومن كتب ظاهر الرواية أيضاً، شرحه الإمام السرخسي، ولم يشتهر كغيره من الكتب كشرح السير الكبير، والمبسوط، والأصول[٢].

سابعاً: النكت: وهو شرح لزيادات الزيادات للإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله، وهو مطبوع[٣].

وغيرها من الكتب التي أملاها على طلبته، وتناقلها العلماء وطلبة العلم يتدارسونها ويدرسونها، حتى انتشرت في الآفاق لقيمتها العلمية، ومكانة مُصنفها رحمه الله رحمة واسعة.

المطلب التاسع: أهميّة كتاب المبسوط ومزاياه

يُعَدُّ كتاب المبسوط للإمام السَّرخسي من أهمِّ وأوسع كتب الفقه الحنفيّ، قد استوعَبَ فيه جميع الأبواب الفقهية بأسلوب رصين، وعبارة واضحة، ضمَّن فيه الأحكام مع أدلَّتها ومناقشتها، وأضاف فيه أقوال أصحاب المذاهب الأخرى، وخاصَّة أقوال الإمامين الشافعي ومالك، وقد يجنح أحياناً إلى ترجيح مذهب غير مذهب الحنفية، مدعِّماً ذلك بالأدلّة.

---

(١) القرشي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، ص٢٨، بروكلمان، كار بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف، ج٣، ص٢٥٥.

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٥٦١، البلخي، نظام الدين البلخين الفتاوى الهندية، دار الفكر، ط٢، ١٣١٠هـ، ج٢، ص١٩١، ذكر فيها: "... ذكر هذا... وشمس الأئمة السرخسي في شرح السير الصغير".

(٣) السرخسي، النكت، وهو شرح لزيادات الزيادات، تحقيق: أبو الوفاء الأفغاني، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٤-١٥.

وهذا الكتاب إلى جانب كونه من أوسع الكتب المطبوعة في الفقه الحنفي والفقه المقارن، وممّا يُعتمد عليه السادة الحنفية في الفتوى والقضاء، ولهذا وَصَفَه العلامة نجم الدين الطرسوسي فيما حكاه عنه ابن عابدين في حاشيته: بقوله: "مبسوط السرخسي لا يُعمل بما يُخالفه، ولا يُركن إلا إليه، ولا يُفتى ولا يُعوَّل إلا عليه"(١).

وممّا يُظهر أهميّة هذا الكتاب هو كونه أوسع وأفضل شروح كتاب "الكافي" للحاكم الشهيد (ت٣٣٤هـ)، والذي يُعتبر من أهم كتب الأصول المعتمدة في الفقه الحنفي، فقد عَمَد فيه مصنّفه إلى جمع مسائل الأصول التي رُويت عن أئمّة المذهب، والمعروفة بكُتب ظاهر الرواية للإمام محمد بن الحسن الشيباني، وهي التي رواها الثقات، ونُقلت عنه بالشُّهرة أو التواتر، وهي:

الجامع الصغير، والأصل المعروف بالمبسوط، والجامع الكبير، والسِّير الكبير، والسِّير الصغير، والزيادات.

وأمّا سبب تأليفه لهذا الكتاب، فإنه يُعرف بما نصَّ عليه الإمام السرخسيّ نفسه، فقال رحمه الله تعالى: "ثمّ إنّي رأيت في زماني بعض الإعراض عن الفقه من الطالبين لأسبابٍ، منها قُصور الهمم لبعضهم حتى اكتّفوا بالخلافيّات من المسائل الطوال، ومنها تَرْك النَّصيحة من بعض المدرِّسين بالتطويل عليهم بالنكات الطَّرديَّة التي لا فقه فيها، ومنه تطويل بعض المتكلِّمين بذكر ألفاظ الفلاسفة في شرح معاني الفقه وخَلْط حدود كلامهم بها، فرأيتُ الصواب في تأليف شرح المختصر، لا أزيدُ على المعنى المؤثِّرِ في بيان كلِّ مسألةٍ، اكتفاءً بما هو المعتمد في كلِّ باب، وقد انضَمَّ إلى ذلك سؤال بعض الخواصِّ من زمن حَبْسي حين ساعدوني لأُنْسي أن أُملِي عليهم ذلك، فأجبتُهم إليه، وأسأل الله التوفيق للصواب، والعصمة من الخطأ وما يُوجب العقاب، وأن يجعل ما نَوَيْتُ فيما أمْليتُ سبباً لخلاصي في الدُّنيا، ونجاتي في الآخرة، إنه قريبٌ مجيب"(٢).

---

(١) ابن عابدين، ردّ المحتار على الدرّ المختار (١/٧٠).

(٢) السرخسي، المبسوط، ج١، ص٧١-٧٢.